

المواقف الصلبة في حياة الإمام السجّاد (عليه السلام)



عاش الإمام زين العابدين (عليه السلام) طفولته الأولى حتى بداية شبابه في أجواء الاهتزاز السياسي في الواقع الإسلامي آنذاك، فهو لم يفتح في طفولته الأولى على الواقع الذي كان يعيشه جدّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، لأنّه استشهد وعمره سنتان، ولكنّه تمثّل في السنين العشر التي عاشها مع عمّه الحسن (عليه السلام)، كلّ ذلك الواقع الصعب الذي واجهه الإمام الحسن (عليه السلام)، وواجه التجربة آنذاك، لأنّه العهد الذي أحاطت فيه الظروف القاسية بالإمام الحسن (عليه السلام)، من خلال كلّ نقاط الضعف التي عاشها المجتمع الإسلامي، وكلّ أوضاع التعب التي حلّت بالمسلمين آنذاك من خلال الحروب المتتالية.

وهكذا عاش مع أبيه الحسين (عليه السلام) ومع عمّه الحسن (عليه السلام)، وكان يختزن منهما كلّ معنى الروح، وكلّ انفتاح الخلق، وكلّ عمق الجراح التي كانا يعيشانها بصمت، ومأساة عمّه الحسن (عليه السلام) الذي قضى مسموماً، ثمّ عاش من بعد ذلك تجربة أبيه الحسين (عليه السلام) وهو ينتظر اللحظة الحاسمة التي يريد أن يقف فيها في مواجهة الحكم الأموي، لأنّ المرحلة التي تلت وفاة الإمام الحسن (عليه السلام) وموت معاوية، كانت مرحلة لم يجد الإمام الحسين (عليه السلام) خلالها أية فرصة للانتفاض، باعتبار أنّّه كان قد وقّع مع أخيه الحسن (عليه السلام) على أن لا يتحرّك أيّة حركة في مواجهة معاوية نتيجة الصلح أو الهدنة.

ونستطيع أن نستوحي أنّ عليّ بن الحسين (عليه السلام) اختزن كلّ أبيه في عقله وفي قلبه، وبذلك رأينا الإمام زين العابدين (عليه السلام) في كربلاء من أكثر الرجال صلابةً، فعندما نحدّق في داخل كربلاء في المصادر الموثوقة منها، فإنّنا لا نجد أنّ زين العابدين (عليه السلام) واجه أيّ موقف بالجزع أو الحزن البارز الذي يعبر عن نفسه بهذا الطريقة الحادّة، بل إنّنا نراه يستمع إلى أبيه وهو ينعى نفسه إلى أخته السيّدّة زينب (عليها السلام)، وتخنقه العبرة، ويحبس حزنه في صدره.

وبعد شهادة الإمام الحسين (عليه السلام)، كان الصلب في مواقفه، والذي كان يتابع البقيّة

الباقية من نساء الحسين (عليه السلام) ونساء أهل بيته وأصحابه.. فالإمام السجّاد (عليه السلام) في موافقه، لم يخضع لأية حال ذلّ. وقد رأيناه في مجلس يزيد وفي الطريق إليه، عندما استمع إلى ذلك الشيخ وهو يقول: الحمد لله الذي فضحكم وخذلكم ونصر أمير المؤمنين يزيد عليكم، نراه يقف بكلّ هدوء وبكلّ عقلانية وبكلّ صلابة، ليفتح عقل هذا الشيخ على الحقيقة التي ضاعت منه بفعل الدعاية الأموية المضادّة، عندما يقول له: «يا شيخ، هل قرأت القرآن؟ فقال: نعم قد قرأته، قال: فعرفت هذه الآية: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا مَا فِي الْقُرْآنِ)؟ قال الشيخ: قد قرأت ذلك، قال عليّ بن الحسين (عليه السلام): فنحن القربى يا شيخ.. قال: هل قرأت هذه الآية: (إِنَّ زَوْجًا رَرِيْدًا)؟ قال عليّ بن الحسين (عليه السلام): فنحن أهل البيت الذين خصصنا بأية التطهير. قال: فبقي الشيخ ساعة ساكتاً نادماً على ما تكلمه، ثمّ رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهمّ إنّي تائب إليك ممّا تكلمته ومن بغض هؤلاء القوم، اللهمّ إنّي أبرأ إليك من عدوّ محمد وآل محمد من الجنّ والإنس».

وهكذا لاحظنا أنّ حزن الإمام زين العابدين (عليه السلام) الذي كان يختزنه في عقله وفي قلبه، أعمق ما يكون، وإنّنا لا نتصوّر حزننا لإنسان أعمق من حزن هذا الإمام، لأنّ القضية ليست مجرد قضية أن يُقتل أبوه أو يُقتل أخوه، ولكنّ المسألة هي أنّه في عدّة ساعات، تتمثّل المجزرة أمامه بكلّ وحشيّتها، وبكلّ همجيّتها، وبكلّ أجزانها، وثمّة فرق بين الإنسان الذي تأتبه المشكلة دفعةً واحدة، ومن تأتبه لتأكل إحساسه لحظةً لحظةً، بحيث إنّها تأكل قلبه وتأكل إحساسه وكلّ مشاعره.. نفس حزن زين العابدين (عليه السلام) على أبيه الحسين والصّفة الطيّبة من أهل بيته وأصحابه، على أنّه كان حزيناً إنسانياً، ليعبّر فيه عن إنسانيّته وعن ذكرياته الأليمة لمشاهد الواقعة التي تقطّع نياط القلب: «كلّما نظرت إلى عمّاتي وأخواتي إنّ لا تذكرتُ فرارهنّ من خيمة إلى خيمة»، أو «هل سمعت أذناك أم رأيت عيناك أنّ امرأةً منذاً أُسرت أو هُتكت قبل يوم عاشوراء؟»، فمن الطبيعي أن يحفر الحزن في قلبه، كأني إنسان يتمثّل المأساة بكلّ أعصابه وبكلّ مشاعره، ولا بدّ من أن يعيشها في نفسه، لأنّ الإنسان يريد للإنسان أن يعيش عاطفته اتباعاً لسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما مات ولده إبراهيم: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إنّ ما يرضي الربّ، وإنّنا بك يا إبراهيم لمحزونون»، هكذا كانت عاطفة زين العابدين (عليه السلام) هادئة حزينة وصلبة في نفس الوقت؛ الحزن الذي يتمثّل في بعض دموعه وفي بعض كلماته، بحيث إنّ الذي يقف أمامه يخشع في هذا المشهد.